الهدي النبوي
في التعامل مع غير المسلمين
سلماً وحرباً

إعداد الأستاذة الدكتورة
بديعة على أحمد الطملاوي
أستاذ الفقه المقارن بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية
جامعة الأزهر

الهدي النبوي
في التعامل مع غير المسلمين سلما وحربا

بديعة على أحمد الطملاوي
قسم الفقه المقارن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، جامعة الأزهر، الأسكندرية، مصر.
البريد الالكتروني:drbaly@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

تكمن أهمية هذا البحث الموسوم بـــــ (الهدي النبوي في التعامل مع غير المسلمين – سلماً وحرباً) في كونه يكشف عن سماحة الإسلام وقبوله بالتعددية الدينية والعقائدية للآخر، عبر رؤية إسلامية شاملة أساسها التكريم، سرعان ما ترفع إلى مسار حصاري يصبغ صعيد العلاقات والتعاملات الإسلامية مع غير المسلمين، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد قدّم الأسوة الحسنة في هذا المجال وغيره، فكان هديه –صلى الله عليه وسلم– هو الأساس في التعامل المتسامح، بما حفظ التعايش السلمي بصرف النظر عن الاختلاف في الدين أو المذهب، تقريراً لمبدأ احترام انسانية الآخر ورعاية حقوقه الأساسية، سواء في أوقات السلم أم في أوقات الحرب. والأساس المنهجي الذي ينطلق منه البحث الحالي، هو الأساس التحليلي والوصف والتاريخي، بوصف التجربة النبوية، في هذا المجال، تجربة فريدة ومتميزة لها رؤيتها الخاصة القائمة على التمازج بين الأوامر الإلهية وبين التطبيق النبوي الإنساني كانت الأساس فيما سار عليه المسلمون من بعده. وقد انتظم البحث الحالي في مقدمة تعريفية موجزة للموضوع، تلاها تمهيد يكشف عن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم، تلاه مبحثان، ناقش الأول منهما تعامل

النبي –صلى الله عليه وسلم– مع غير المسلمين في أوقات السلم، فيما عرض الثاني لتعامله –صلى الله عليه وسلم معهم في أوقات الحرب، تلاهما خاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات، ثم قائمة بالمصادر والمراجع .

الكلمات المفتاحية: التعددية – غير المسلمين – السلم – الحرب – التسامح – الآخر.

Prophetic Guidance
In Dealing with Non-Muslims in War and Peace

Badea Ali Ahmad Al-Tamalawi.

Department of Comparative Jurisprudence, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Female Students, Al-Azhar University, Alexandria, Egypt.

Email: drbaly@azhar.edu.eg

Abstract:

The importance of this research lies in its revelation of Islam's tolerance and acceptance of religious and doctrinal pluralism, through a comprehensive Islamic perspective rooted in honor and dignity, which shapes Islamic relations and interactions with non-Muslims. Prophet Muhammad (pbuh) provided the ideal example in this regard; his guidance established the foundation for tolerant interactions, ensuring peaceful coexistence regardless of differences in religion or sect, affirming the principle of respecting the humanity of others and safeguarding their basic rights, in both times of peace and war .The methodological foundation of this research is analytical, descriptive, and historical, as the Prophetic experience in this area represents a unique and distinguished model, with its own vision that blends divine commands with human Prophetic application. The research includes a brief introductory overview of the topic, followed by a preface that reveals the origin of relations between Muslims and others. This is followed by two sections: the first discusses the Prophet’s interactions with non-Muslims in times of

peace, and the second examines his interactions with them in times of war. A conclusion then summarizes the key findings and recommendations.

Keywords: pluralism – non-Muslims – peace – war – tolerance - others

المقدمة:

تكمن أهمية البحث المرسوم بـــ (الهدي النبوي في التعامل مع غير المسلمين سلماً وحرباً) في كونه يكشف عن سماحة الإسلام وقبوله بالتعددية الدينية والعقائدية للآخر، عبر رؤية إسلامية شاملة أساسها التكريم، سرعان ما ترتفع إلى مسار حضاري يصبغ صعيد العلاقات والتعاملات، ورسول الله (ﷺ) قد قَدّم الأسوة الحسنة في هذا المجال وغيره، فكان هديه (ﷺ) هو الأساس في التعامل المتسامح، بما حقّق التعايش السّلمي بصرف النظر عن الاختلاف في الدين أو المذهب، تقريراً لمبدأ احترام إنسانية الآخر ورعاية حقوقه الأساسية، سواء في أوقات السلم أم في أوقات الحرب.

ولعل هذا التفرد الأخلاقي جاء مصداقاً لقوله تعالى: ((**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**)) "القلم :٤"، بما ينبىء عن المكانة العالية للنبي (ﷺ)، وتظهر أن مكارم الأخلاق هي وظيفة الرسالة المحمدية، وهو ما يمكن إدراك أبعاده من قول النبي (ﷺ) "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [(١)] أي ما انتقص منها، بما يكشف عن أن الأخلاق النبوية كانت لها أصول جاء بها القرآن تشريعاً وقانوناً على نحو معجز تضمن معنى "يلفت النظر في حاله (ﷺ) وإلى تاريخه، ليجتمع من كل ذلك ما يشهد له (ﷺ) بأكرم الصفات، وأجمل الأخلاق، وحميد الفعال، ولم يطالبنا ربنا في ذلك بالبحث والاستقصاء، وإنما صدر حكمه بناءً على علمه، وصاغه في صورة الخطاب له (ﷺ) ليكون وساماً يقلده من عرفت منزلته في شأن من شئون الحياة[(٢)].

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل (ت :٢٤١م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة –رضي الله عنه– تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١، حديث رقم (٨٩٥٢)، ٥١٢/١٤.

(٢) د/ إسماعيل الدفتار، ذكرى مولد النور بعد ملحمة العبور، تقديم: د. محمد حافظ غانم، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٣ .

ومن مكارم النبي (ﷺ) ومحاسنه، ما تجلّى في تعاملاته مع الآخر المختلف ديناً وعقيدة، وهو ما ترسخ بصورة إيجابية في الأدبيات القديمة من ألد أعدائه، وهو أمر مثبت وموثق بشهادات خصومه كأبي جهل، والنضر بن الحارث وغيرهما [١]، وهو الأمر نفسه الذي اعترف به كثير من خصوم الإسلام في الأدبيات الحديثة مما يصعب استقصائه، على نحو ما جاء على لسان (بريفولت) عن الحضارة الإسلامية التي أرسى دعائمها النبي (ﷺ) والتي اختلفت، كما يقول عن "الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد كما اتسمت بالسماحة، والإنسانية والأخوة العالمية"[٢].

ومما لاشك فيه أن العلاقة مع الآخر، المختلف ديناً وعقيدة، صارت بمثابة العمود الفقري والمرتكز الأساسي لأي سلوك أخلاقي في العصر الحالي، فهي القوة الدافعة التي تنظم الحياة من كل جوانبها، بل هي أسلوب حياة في التعامل، تتغلغل وتتمدد في شتى مناحيها، وتصير لها ديمومتها وسيرورتها المتجذرة في السلوك الإنساني، ومخرجاً أساسياً من مخرجات السلوك الإيجابي والفطري، وأحد معايير البقاء والنهضة والمدنية، ولها دور إيجابي ملموس في لحمة التماسك المجتمعي، وهي أمور وشمائل متغلغلة في ديننا الحنيف، وفي معاملات النبي (ﷺ) مع غير المسلمين، بما يشكف عن قيم التسامح والقدرة على التعايش السلمي، وبخاصة مع المقيمين في دولة واحدة، إيماناً بأنّ "العلاقات مع الآخر تزيد الذات بدلاً من أن

(١) ينظر، عبد الملك بن هاشم المعافري (ت :٢١٣ هـ)، سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥، ٢٩٩/١-٣٠٠ .

(٢) أنور الجندي، أخطر ما تواصي به المسلمون على مر الأجيال، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٦.

تنقصها"[١]، بحيث صار المجتمع الإسلامي في عهد النبوة مجتمعاً مفتوحاً متعدد الديانات والثقافات، وصارت الذات الإسلامية تقاسم غير المسلمين مائدة الوجود والحياة، بعيداً عن العدائية والكراهية، والانكماش والإنغلاق بكل ما تحمله هذه المفردات من سلبية ومرضية.

والحقيقة التي لا يمكن إغفالها أن ثمة تشاركية وتواصلية اجتماعية صبغت المجتمع الإسلامي على مدى تاريخه، وبخاصة في مجتمع عهد النبوة بصورة أكثر وضوحاً قائمة على مبدأ الوجود الاجتماعي والعلاقات التشاركية، بما أسس لقيم السّلم والتعايش بين الفرقاء المتنوعين: مسلمين، ويهود، ومشركين، وفق تصور جديد قائم على مفهوم الأمة ذي الطابع السياسي والمدني لا العقائدي الديني، وعلى أساس الخصوصية الثقافية، والاجتماعية، والدينية، أو ما يُسمى بحقوق المواطنة، وفق دعائم للعلاقات الإنسانية أرساها الإسلام سواء في السلم أو الحرب، بهدف الوصول بالإنسان إلى السمو، والكمال الخُلقي، والرقي الروحي[٢].

ولعل إطاعة النبي (ﷺ) في هذا الجانب، وفي غيره، هو أمر حتمي وضروري، إن أرادت البشرية الحياة . قال تعالى: **((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ))** "الأنفال: ٢٤" .

ومن هذا المنطلق، فقد شملت أخلاق النبي (ﷺ) بيسرها وسماحتها غير المسلمين، فهو ينظر إليهم بعين الإنسانية والبشرية، فبالرغم مما كان يعانيه من أذى منهم وإساءة، لم يدعو عليهم أو ينتقم منهم، بل كان يسعى إلى هدايتهم، وكان جوابه (ﷺ) "إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبده ولا

---

(١) تزفتيان تودورف، الحياة المشتركة، ترجمة: منذر عياش، دار: كلمة، والمركز الثقافي العربي، أبو ظبي – الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص ٣٢.

(٢) الإمام الأكبر محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٤٩.

يشرك به شيئاً" [١] فلم يكن النبي (ﷺ) يفكر بهداية الآخر المخالف له في الدين فقط، ولكن كان يفكر في هداية من يخرج من أصلابهم.

وبلغ من تسامح النبي (ﷺ) مع مخالفيه ممن ناصبوا له العداء، أنه تجاوز عن أهل مكة يوم الفتح، ونسى عداوتهم، ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس، والمثال الحي، والنموذج المجسد لكل خلق وكل فضيلة دعا الناس إليه، وحثهم عليه، ورغبهم فيه، فجمع (ﷺ) أهل مكة وقال لهم: "إذهبوا فأنتم الطلقاء"[٢] غاية في الكمال الخلقي الذي استوعب المخالف، بما يجعل من هذا التمزهر الأخلاقي بمنزله القدوة حتى في أقصى الظروف النفسية، وأصعب المواقف البشرية التي يواجه فيها الإنسان أعداءه، فلم يترك النبي(ﷺ) لرد الفعل في نفسه أن ينسيه عن مهمته، أو يجنح به إلى التصرف بما لا يتفق مع طبيعته.

أسباب اختيار الموضوع:

يقف وراء اختيار هذا الموضوع مادة للبحث عن سبب قوي، فقد استرعى اهتمامي وأنا أراجع بعض ما كتب عن النبي (ﷺ) في الأدبيات الغربية، قول (واشنطن إيرفينغ): "لقد كان هدف الرسول (ﷺ) من فتح مكة دينياً لا حربياً،

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري (ت :٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ١٤٢٢ هـ، حديث رقم (٣٢٣١)، ١١٥/٤، ومسلم بن الحجاج النيسابوري (ت :٢٦١ هـ) كتاب الجهاد والسير، باب: ما لقى النبي (ﷺ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٥، حديث رقم (١٧٩٥)، ٣ /١٤٢٠.

(٢) أحمد بن الحسين البيهقي (ت :٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، كتاب السير، باب فتح مكة، تحقيق: محمد بعد القادر عطا، در الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، حديث رقم (١٨٢٧٦)، ١٩٩/٩ .

فكانت الرأفة بسكان مدينته التي خضعت لمطلق قوته دليلاً من أدلة الرحمة في الإسلام"[١].

وأيضاً قول (غاندي): "أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك، بدون نزاع، قلوب ملايين البشر، لقد أصبحت مقتنعاً بأنّ السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول (ﷺ) مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه وشجاعته ... هذه الصفات هي التي مهدت الطريق وتخطت المصاعب وليس السيف"[٢] فرغبتني هذه الأدبيات، وغيرها في معاودة قراءة سيرة النبي (ﷺ) وتعاملاته الأخلاقية مع غير المسلمين، والتي يكشف عن هيمنة قيم التسامح على كينونته (ﷺ) التي تجاوزت العداء إلى القبول بالتعدّد والتعايش وفق رؤية انفتاحية، لبناء جسور التفاهم والالتقاء بين الجميع، بما يعكس الصورة الحضارية للنبي (ﷺ) وللإسلام، الذي لم يقم على اضطهاد مخالفيه، أو مصادرة حقوقهم، أو المساس بأموالهم وأعراضهم ودمائهم[٣].

يضاف إلى السبب السابق سبب آخر، وهو طموحي الشخصي في إيجاد توازن بين التأطير النظري لهدي النبي (ﷺ) وأخلاقه في تعامله مع غير المسلمين، وبين التطبيق العملي لهذه الأخلاق ؛ للوقوف على ما يمكن الإفادة منها في التمكين لقيم التعايش السلمي وقبول الآخر المختلف، فيتصل الماضي بالحاضر، وتضحى الرؤية الإسلامية لأسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم أكثر عمقاً، وأوسع خبرة.

---

(١) واشنطن إيرفينغ، محمد رسول الله (ﷺ) وخلفاؤه، ترجمة: هاني يحيي نصري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص ٣٤٦ .

(٢) حسين معدي، الرسول (ﷺ) في عيون غربية منصفة، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٤١٩ هـ، ص ١٧٩ .

(٣) محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٥.

أهداف البحث:

١-تتبع مسارات معاملات النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في السّلم والحرب.

٢-الوصول إلى فهم الدور الذي تؤديه أخلاق النبي (ﷺ) في هذه الجزئية، في إقامة دعائم التعايش السلمي المفضي إلى التماسك المجتمعي.

٣-بيان أثر هدى النبي (ﷺ) في تدعيم أواصر الإنسان والتسامح بين الأفراد.

أهمية البحث:

تكُمن أهمية البحث الحالي في كونها:

١-تسعى لإعطاء صورة واضحة المعالم عن طبيعة أخلاق النبي (ﷺ) في تعامله مع غير المسلمين في أوقات السّلم والحرب.

٢-تسهم في تعيين الأطر الأخلاقية السليمة التي تؤدي إلى إيجاد منهجية أخلاقية، تساعد الجيل الحالي والأجيال القادمة على الانفتاح المنضبط على الآخر، دون خوف على الهوية الإسلامية والعربية.

التساؤلات البحثية:

١- ما الأصل الذي تقوم عليه علاقة المسلمين مع غيرهم؟

٢-كيف تعامل النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في وقت السّلم والحرب؟ وما مظاهر ذلك؟

منهجي في البحث:

الأساس المنهجي الذي ينطلق منه البحث الحالي، هو الأساس الوصفي التحليلي؛ مع الاستعانة بالمنهج التاريخي ؛ بوصفه الأكثر شيوعاً وملائمة مع دراسة الظاهرة الأخلاقية، التي تعد من الظواهر الإنسانية والاجتماعية.

الأساس المنهجي الذي ينطلق منه البحث الحالي، هو الأساس التحليلي والوصفي والتاريخي، بوصف التجربة النبوية، في هذا المجال، تجربة

فريدة ومتميزة لها رؤيتها الخاصة القائمة على التمازج بين الأوامر الإلهية وبين التطبيق النبوي الإنساني، كانت الأساس فيما سار عليه المسلمون من بعده.

وقد انتظم البحث الحالي في مقدمة تعريفية موجزة للموضوع، تلاها تمهيد يكشف عن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم، تلاه مبحثان، ناقش الأوّل منهما تعامل النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في أوقات السلم، فيما عرض الثاني لتعامله (ﷺ) معهم في أوقات الحرب، تلاهما خاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات، ثم قائمة بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: التعددية – غير المسلمين – السلم – الحرب – التسامح – الآخر.

* **التمهيد:** وتضمن تحديد أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم وأساسها.

* **المبحث الأول:** معاملة النبي (ﷺ) لغير المسلمين في وقت الّسلم.

ويشتمل على خمسة محاور:

المحور الأول: سماحة النبي (ﷺ) .

المحور الثاني: الصلات الاجتماعية.

المحور الثالث: التعامل المالي.

المحور **الرابع:** حرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم.

المحور الخامس: إقرار الحرية الدينية.

* **المبحث الثاني:** معاملة النبي (ﷺ) لغير المسلمين في وقت الحرب.

ويشتمل على أربعة محاور:

المحور الأول: بواعث حروب النبي(ﷺ) وأسبابها.

المحور الثاني: أخلاق النبي (ﷺ) مع غير المسلمين قبل بداية الحرب.

المحور الثالث: أخلاق النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في أثناء الحرب والقتال.

المحور الرابع: أخلاق النبي (ﷺ) مع غير المسلمين بعد انتهاء الحرب.

* **الخاتمة:** وتتضمن أهم النتائج التي أمكن التوصل إليها، والتوصيات المقترحة.

* **قائمة** المصادر والمراجع التي تمّ الاعتماد عليها.

التمهيد

أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم:

ثمة علاقة تفاعلية وتواصلية بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، تحكمها نزعة إنسانية تستمد مبادئها من تعاليم الإسلام الذي جاء لترسيخ التكريم الإنساني، بغض النظر عن الجنس، أو اللون، أو المعتقد، وهو التكريم المشار إليه في قوله تعالى: **((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا))** "الإسراء: ٧٠" بما يكشف عن فضاء واسع من التماس الإنساني والوحدة الإنسانية كمبدأ طبيعي وقانون ثابت لا يتبدل، فالعالم أسرة إنسانية واحدة، والعلاقات بين أفراده، على اختلافهم، هي "المادة الأسمنتية التي تمسك بمفردات البناء الحجري فتكسبه قوة ومنعة، وبقدر صحة العلاقات الاجتماعية بين المواطنين وسويتها، بقدر ما يتوافر للمجتمع في كليته ومجموعة من سوية، ممّا جعل من هذه العلاقات موضوعات مستمرة للبحث والدراسة بين الكثيرين من علماء الدين والاجتماع بصفة خاصة ؛ بحثاً عن الأسس المتينة التي تكفل لهذه العلاقات سوية التوجه، وصحة التأسيس"(١).

وحفاظاً على صرح هذه الوحدة الإنسانية، وتحقيقاً لدعائم العلاقات الإنسانية، فقد أقام الإسلام نظاماً شاملاً أساسه العدل، والرحمة، والحرية، والتسامح والتعاون سواء تجاه أفراده أم مخالفيه، من أجل انتظام العلاقات البشرية في الحياة الاجتماعية، وترسيخ النزعة الإنسانية والتربوية القائمة على ثقافة الحوار والتسامح وقبول الآخر المختلف ديناً أو مذهباً، بما يسهم في "غرس وتنمية روح التصالح مع العالم، والتناغم مع إيقاع الكون،

(١) سعيد إسماعيل على، المواطنة في الإسلام، دار السلام للطباع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١، ص ٢٦٦.

وتكريس حالة الانتماء للوجود، وتعزيز أخلاقية المحبة، وتدريب المشاعر والأحاسيس والعواطف على القيم النبيلة، والسعي لاكتشاف روافد ومنابع إلهام الطاقة الحيوية الإيجابية في هذا العالم، والتواصل العضوي معها"(١). دون أن ننسى المساهمة في تعديل الصورة المشوهة للإسلام الناتجة عن الفهم الخاطئ والتصرفات اللامسئولة لبعض المسلمين، التي وسمت بالعنف وبالبعد عن الإنسانية تجاه الآخر المختلف، ممّا رسخ للصورة السلبية للمجتمعات الإسلامية وتعاملاتهم تجاه غير المسلمين في الفكر الغربي، أصبحت من الروافد الرئيسة في الثقافة الغربية واتسمت بالثبات والتوجه نفسه، وذلك من خلال حملة ثقافية ممنهجة؛ لتشويه الرؤية الحضارية والإنسانية للإسلام فـــليس هناك في عالم اليوم دين من الأديان يتعرض لمثل ما يتعرض له الإسلام في الإعلام الدولي من ظلم فادح وافتراءات كاذبة. وهذا يبيّن لنا أنّ هناك جهلاً فاضحاً بالإسلام وسوء فهم لتعاليمه، سواء كان ذلك بوعي أو بغير وعي، وأنّ هناك خلطاً واضحاً بين الإسلام كدين، وبعض التصرفات الحمقاء التي تصدر من بعض أبناء المسلمين باسم الدين، وهو منها براء"(٢).

ومن ثمّ، فإنّ عملية إعادة بناء الصورة الغربية وتصحيحها، ومواجهة شبهات المبطلين وافتراءاتهم، تقتضي بالضرورة توضيح أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم، بحيث تتجاوز النظرة الضيقة إلى حقل رؤيوي أوسع، يتصل بقدرة المسلمين على التعايش مع المخالفين لهم، ومدّ جسور المشاركة معهم والانفتاح عليهم دون خوف على الهوية؛ لأنّ رفض ذلك يعني الجمود والسكونية الذي هو بمثابة الموت.

---

(١) عبد الجبار الرفاعي، إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ٢٠١٣، ص ٢٩٥.

(٢) د/ محمود حمدي زقزوق، مقدمة كتاب: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١٠، المقدمة، ص ٦.

وقبل أن نتطرق لأصل هذه العلاقة وأساسها، تجدر الإشارة إلى أنّ الإسلام نظر إلى العلاقات الإنسانية في إطار التعاون والصداقة والمحبة لا العداوة والغلبة، وحدّد نوع هذه العلاقات في قوله تعالى: ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**))"الحجرات :١٣" فالتأسيس القرآني لهذه العلاقات الإنسانية قائم على التعارف كمحور أساسي لهذه العلاقات، بعيداً عن العزفية أو المذهبية، أو العقائدية أو الجنسية.

وعندما نستعرض أقوال الفقهاء والعلماء في هذه المسألة، نجد أنّ آراءهم قد تنوعت قديماً وحديثاً، ودار النقاش بينهم حول تساؤل مفاده: هل هذه العلاقة هي علاقة سلّم أم حرب؟ وذلك على قولين:

القول الأوّل: إن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هي الحرب، مع اختلاف في نسبة هذا الرأي، فمن الكتاب من نسبه إلى جمهور الفقهاء(١)، ومنهم من نسبه إلى القلة منهم (٢)، وإن تبين لي، بعد الرجوع إلى كتب الفقه المعتمدة، أنه رأي جمهور أئمة المذاهب الأربعة وابن حزم الظاهري(٣).

---

(١) ينظر د/ وهبه الزحيلي، العلاقات الدولية في الإسلام، مقارنة بالقانون الدولي الحديث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، ص ٩٣.

(٢) ينظر، محمد أبو زهرة، العلاقة الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٥١.

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر:

- أبو بكر بن مسعود الكاساني (ت :٥٨٧ هـ) بدائع الصنائع، تحقيق: على معوض، وعادل عبد الجواد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ١٠٠/٧ .
- منصور بن إدريس البهوتي (ت :١٠٥١ هـ)، كشاف القناع، علق عليه: هلال مصيلحي، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، د.ت، ١١١/٣.
- محمد بن أحمد الشربيني (ت:٩٧٧ هـ)، مغنى المحتاج، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨، ٢٢٠/٤.
- محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت: ١٢٣٠ هـ)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، مطبعة عيسى البابلي الحلبي، القاهرة، د.ت، ١٧٣/٢. =

وقد ذهب إلى هذا الرأي قلة من الباحثين المعاصرين(١)، الذين تأثروا بالحالة الواقعية التي سارت عليها علاقة المسلمين بغيرهم في عصر الاجتهاد الفقهي في القرن الثاني الهجري، ونشوت الانتصارات التي حققتها الفتوحات الإسلامية، وفكرة عالمية الإسلام، ووجوب دعوة الناس إليه(٢).

القول الثاني: إنّ الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السّلم، وهو رأي الجمهور عند البعض(٣)، وعند البعض الآخر هو رأي الأوزاعي (ت:١٥٧هـ) وسفيان الثوري (ت:١٦١هـ) والعلماء المتأخرين(٤)، وبعد الرجوع إلى المراجع المعتمدة، تبين لي أنه رأي لبعض العلماء المجتهدين، وهو ما يفهم من نقل (ابن رشد) لما ذهب إليه الإمامان: الأوزاعي، والثوري(٥).

=- محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت: ٤٨٣ هـ)، المبسوط، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٤ هـ، ٢/١٠ .

- محمد بن إدريس الشافعي (ت:٢٠٤ هـ)، الأم، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣، ١٧٠/٤ .

- على بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦ هـ)، المحلى، تحقيق: عبد الغفار البنداري، دار الفكر، بيروت، د.ت، ٣٤٠/٥ .

(١) ينظر، عبد الكريم زيدان، مجموعة بحوث فقهية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٦، ص ص ٥١-٥٧، وإياد هلال، المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية، دار النهضة الإسلامية، بيروت، ١٩٩١، ص ٢٣.

(٢) ينظر، وهبه الزحيلي، العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٩٣، وآثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨، ص ١٣٠ وما بعدها.

(٣) ينظر، محمد أبو زهرة، العلاقة الدولية في الإسلام، سابق، ص ٥١.

(٤) ينظر، وهبه الزحيلي، العلاقات الدولية، سابق، ص ٩٤ .

(٥) ينظر على سبيل المثال لا الحصر:

- محمد بن أحمد بن رشد (ت:٥٩٥ هـ)، بداية المجتهد، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٨١، ٦٨٤/١-٣٨٥.

- البهوتي، كشاف القناع، سابق، ١١١/٣.

- السرخسي، المبسوط، سابق، ٢/١٠.

- الكاساني، بدائع الصنائع، سابق، ١٠٠/٧.

- الشافعي، الأم، سابق، ١٧٠/٤ .

- محمد بن عرفة الدسوقي، حاشية الدسوقي، سابق، ١٧٣/٢.

وقد تبع أصحاب هذا القول عدد كثير من الباحثين المعاصرين[١].

وقد كان لأصحاب هذهين القولين أدلتهم المعتبرة التي احتجوا بها على صحة ما ذهبوا إليه واستدلوا بها، سواء أكانت من القرآن أم السنة أم المعقول أم الوقائع التاريخية وهو ما أفاضت به المؤلفات القديمة والحديثة على حدّ سواء، ممّا يعدّ تكراره نوعاً من الحشو الذي لا طائل منه.

وبالنظر إلى هذين القولين وأدلتهما، يتبيّن أنّ الرأي المختار هو ما ذهب إليه أصحاب القول الثاني، الذين رأوا أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السّلم، وأن الحرب أمر طارئ لم يلجأ إليه المسلمون إلا في حالات الدفاع وردّ الظلم، كما أن هذا القول يتوافق مع مقاصد الشريعة التي سعت لحفظ الكليات الخمس للمسلمين وغيرهم، وقد سبقت الإشارة إلى أن الإسلام قد حدّد نوع العلاقات الإنسانية في التعارف، وهو محور يتطلب العلاقة السلمية الإيجابية: السلام لا الاستسلام، وهو عنوان الإسلام يلازمه في كل مناحي الحياة، وهو ما دعا إليه القرآن الكريم في غير موضع [٢]،كما أنّ من أسمائه تعالى (السلام)، وهو دعاء النبي (ﷺ)[٣].

وإن كان علينا التفريق بين السلام كعلاقة إيجابية تفاعلية بين طرفين يبغيان معاً الوصول إلى إقرار السلام العادل النابع عن رغبة حقيقية المشار إليها في قوله تعالى :((**إِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**))

---

(١) ينظر، الإمام / محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، سابق، ص ١٤٧، ومحمد أبو زهره، العلاقات الدولية في الإسلام، سابق، ص ٤٧، وعبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٧٧.

(٢) نحو قوله تعالى: ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**)) "البقرة: ٢٠٨"، وقوله سبحانه :((**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ**)) "يونس:٢٥"

(٣) الشيخ، محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، د.ت ٤٧٨٣/٨-٤٧٨٤.

"الأنفال: ٦١"، وبين الاستسلام الذي يعني الخنوع والمذلة وقبول شروط المعتدي وعنجهيته واستعلائه، وهو يرفضه الإسلام والمنطق والعقل؛ لأنّ الآية السابقة تحض على السِّلم المتكافئ والعادل، فالله تعالى يريد أن "ينبهنا إلى أنّ قوة المؤمنين واستعدادهم الحربي يجب ألا يكونا أداة للطغيان، ولا للقتال لمجرد القتال، ولذلك ينبهنا (سبحانه وتعالى) إلى أنهم لو مالوا إلى السّلم فلا تخالفهم وتصر على الحرب، لأنّ الدين يريد سلام المجتمع، والإسلام لا ينتشر بالقوة، وإنما ينتشر بالإقناع والحكمة، فلا ضرورة للحرب في نشر الإسلام ؛ لأنه هو دين الحق الذي يقنع الناس بقوة حجته، ويجذب قلوبهم بسماحته، وكل ذلك لشحن مدى قوة الإيمان، لنكون على أهبة الاستعداد، ولكن دون أن تبطرنا القوة أو تدعونا إلى مجاورة الحدّ، فإن مالوا إلى السّلم علينا أن نميل إليه، لأنّ الله **((سبحانه وتعالى))** يريد سلامة المجتمع الإنساني[١].

(١) قال (ﷺ): "اللهم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحينا ربنا بالسلام، وأدخلنا الجنة دار السلام" صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب استجاب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث رقم (٥٩١)، ٢/٩٤.

المبحث الأول

علاقة النبي (ﷺ) بغير المسلمين في وقت السّلم

لاشك في أن تعامل النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في وقت السلم، سواء أكانوا مشركين أم ذميين أم مستأمنين كان بمثابة الدستور المؤسس لحياة اجتماعية مستقرة وآمنة، رسم النبي (ﷺ) قواعدها بصورة عملية وقولية، تكشف عن الكمال الإنساني في السلوك الأخلاقي والاجتماعي، وتوضح للناس إلى أي مستوى يمكن أن ترقى فطرة الإنسان السليمة حين تتخلص من شوائب الاستعلاء والنقص، بما يحقّق التعايش الإنساني، بعيداً عن ثنائية الإفراط والتشدد مع غير المسلمين في الفعل والقول التي انتهجها عدد من المسلمين جهلاً أو تجاهلاً، ودون فهم لروح الإسلام ومنهجه.

هذه الروح تمثلت في حال الرسول (ﷺ) وعلاقاته بمن حوله، بما فيهم غير المسلمين، ونطق بها لسانه الشريف دستوراً يلتزم وأمراً يتبع، ولم تكن هذه المعاملة منه (ﷺ) مجرد تعاطف نفسي أو رضاء قلبي، أو ارتباط مصلحي، وإنما كانت صورة للمبادئ القويمة التي جاء يرسى دعائمها بين الناس، حتى إنّه (ﷺ) ليجعل من نفسه خصماً لكلّ منْ يظلم مواطناً غير مسلم، أو يبخسه شيئاً من حقوقه، مما يعتبر دعامة للوحدة الوطنية بين جميع أبناء الأمة))[1].

ومن ثمّ، يظهر النبي (ﷺ) كقائد اجتماعي، نلمح في تعاملاته مع غير المسلمين صوراً مشرقه ومثالاً ملأ الأرض عدلاً، وحلماً، وسماحة، بعيداً عن العلاقات الاستعلائية، وعلاقات السيد بالعبيد، والغالب بالمغلوب، التي اتبعها أصحاب الديانات الأخرى من مواقف عدائية تجاه الآخر المختلف ديناً

(١) قال تعالى: "**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** "المائدة :١٨".

وعقيدة، تحت دعاوي: شعب الله المختار، وأبناء الله وأحباؤه، ممّا أدى إلى اتخاذ مواقف عدائية بعيداً عن المساواة بين بني الإنسان(١).

وتماشياً مع تأسيس الإسلام للعلاقات الإنسانية على السلم، اعتنى النبي (ﷺ) ببيان أصول التعامل مع غير المسلمين وآدابه، لإظهار البر والرحمة معهم، بما يكفل التكافل الاجتماعي لجميع أفراد الوطن، على اختلاف الدين والعقيدة، انطلاقاً من قوله تعالى: ((**لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**)) "الممتحنة :٨" هذه الأسس تقوي من الوجدان الاجتماعي بين أفراد الوطن الواحد، وهو ما يلفت النظر في الآية السابقة التي أشارت إلى مفهوم المواطنة بمصطلح (الدار) الذي شاع في التراث الإسلامي، وتعدّدت التآليف فيه تحت مسميات مترادفة، كالمنازل، والديار، والديارات (٢)، بل وجعل القرآن لهذه الديار مكانة وحرمة، وأن الاعتداء على مواطنيها يعتبر جريمة يحتاج إصلاحها إلى القتال، فيقول تعالى: ((**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ**)) "الممتحنة :٩" ولاشك في أنّ العلاقات الاجتماعية بين النبي (ﷺ) وبين غير المسلمين، في وقت السلم، يحتاج تأصيلها إلى دراسة تفصيلية لا يمكن الإلمام بها في هذا البحث الموجز، ومن ثم سأكتفي هنا بذكر بعض الوقائع العملية والقولية لتعامل النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في وقت السلم، على سبيل المثال والاسترشاط لا الحصر والجمع.

---

(١) ينظر، فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، دار الشروق، القاهرة، ١٨٧ .

(٢) ينظر، سعيد إسماعيل علي، المواطنة في الإسلام، سابق، ص ١٧، نقلاً عن د/ محمد عمارة، الإسلام والوطنية، مجلة المسلم، المعاصر، القاهرة، ع (٩٧)، ٢٠٠٠، ص٦.

*** المحور الأول: سماحة النبي (ﷺ):**

لقد كان النبي(ﷺ) ولا يزال، مثالاً حيًّا ونموذجها مجسداً للكمال الإنساني في علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وديانتهم، في كل أحواله وأعماله وأقواله، والتي جاءت ترجمة عملية صادقة لما وصف به في كتاب الله تعالى: ((**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**)) "القلم :٤".

ومن مظاهر هذه الأخلاق الفريدة، مما تحلى به النبي (ﷺ) من أخلاق في تعاملاته مع غير المسلمين، والتي تجلت فيها منزلة القدوة والاقتداء به (ﷺ) المشار إليها في قوله تعالى: ((**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**)) "الأحزاب :٢١".

وحين نتبين أبعاد هذه القدوة، نتأمل في مواقف عظيمة من قطوف يانعة من السيرة النبوية التي تتحدث عن سماحة النبي (ﷺ) ورحمته وصفحه عن الناس عامة، وعن غير المسلمين خاصة، والتي بسببها دخل الناس أفواجاً في دين الله، وهو ما حرص النبي (ﷺ) على أن يذكر الناس بشأنه ويعرفهم أمره، فكان (ﷺ) يقول لهم: ((إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة))[1].

بمثل هذه القيم، كان تعامل النبي (ﷺ) مع غير المسلمين، فتعددت صور سماحته ورحمته بهم، وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر وأذكر منها:

١-**تجاوزه عن مخالفيه ممّن نصبوا له العداء:** فقد كانت سماحته بعد رحلة الطائف وفتح مكة غاية ما يمكن أن يصل إليه صفح البشر وسماحتهم، فكان موقفه (ﷺ) ممّن كانوا حرباً على الدعوة من قريش متمثلاً في جملة واحدة بليغة: "إذهبوا فأنتم الطلقاء".

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث رقم (٢٥٩٩).

فعلى الرغم من كثرة إيذائهم له (ﷺ) ولأصحابه، فإنه (ﷺ) قابل كل ذلك بالتسامح والعفو في أقصى الظروف النفسية، فكان (ﷺ) يتحدث مع أهل مكة يوم الفتح من موطن المنتصر القادر ومن موطن القوة لا من موطن الضعف "وتلك لحظة من اللحظات التاريخية النادرة، عوضه الله بها عن شدة كان يلاقيها، وكل هزيمة حلت به، وكل إيذاء أصابه، تصوراً عزيزاً أرضى خاطره، وأثلج صدره، وأراح فؤاده ... ونسى رسول الله (ﷺ) إحن هؤلاء وعداوتهم، ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس"(١).

ويتضح عفو النبي (ﷺ) عمّن أراد قتله، فعن أنس بن مالك –رضي الله عنه– أن امرأة يهودية أتت رسول الله (ﷺ) بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها رسول الله (ﷺ) فسألها عن ذلك، فقالت :أردت لأقتلك. قال: "ما كان الله ليسلطك على ذلك" قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال: "لا" قال: فمازلت أعرّفها في لهوات رسول الله (ﷺ)(٢).

٢- دعاء النبي (ﷺ) لمخالفيه من غير المسلمين، فعن أبي موسى الأشعري –رضى الله عنه– قال: كانت اليهود يتعاطسون عند النبي (ﷺ) رجاء أن يقول لهم: يرحمكم الله، فكان (ﷺ) يقول لهم: "يهديكم، ويصلح بالكم"(٣).

ومن هدى النبي (ﷺ) في ذلك أيضاً، أنه كان يكثر الدعاء بهداية غير المسلمين إلى الإسلام، كدعاء النبي (ﷺ) لقبيلة دوس بقوله: ((**اللهم اهد دوساً وآت بهم**))(٤)، وكذلك فعل مع قبيلة ثقيف بقوله: ((اللهم اهد ثقيفاً))(٥)، وأيضاً

(١) إبراهيم على أبو الخشب، يا رسول الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم (٢٦١٧)، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السم، رقم (٢١٩٠).

(٣) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (١٩٥٨٦).

(٤) صحيح البخاري، الجهاد والسير (٢٧٧٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٤).

(٥) مسند الإمام أحمد رقم (١٤٧٠٢).

دعاؤه (ﷺ) لأم أبي هريرة–رضى الله عنه– قبل إسلامها بقوله: ((اللهم اهد أم أبي هريرة))[١].

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل مفاده: كيف نجمع بين دعاء النبي (ﷺ) لغير المسلمين بالهداية والإسلام وبين دعاءه عليهم؟ على نحو ما جاء في قوله (ﷺ) "اللهم عليك بقريش" ثلاث مرات ثم سمى: "اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي مُعيط"[٢].

وتكمن الإجابة عن هذا التساؤل في أن دعاء النبي (ﷺ) على غير المسلمين كانت في مواطن معينة، كانتهاكهم لحرمة الدين وحرمة أهله (ﷺ)، أما في غير ذلك، فكان (ﷺ) يدعو لهم بالهداية والتوبة[٣].

٣–وكان (ﷺ) يأتي إلى مخالفيه من غير المسلمين في ديارهم، ليدعوهم إلى الإسلام، فعن أبي هريرة –رضى الله عنه– قال: "بينا نحن في المسجد إذ خرج إلينا رسول الله (ﷺ) فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معة حتى جئناهم، فقام رسول الله (ﷺ) فناداهم فقال: "يا معشر يهود أسلموا تسلموا، فقالوا: قد بلغت أبا القاسم"[٤].

---

(١) صحيح مسلم، فضائل الصحابة (٢٤٩١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الوضوء رقم (٢٤٠)، وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير رقم (١٩٧٤).

(٣) ينظر، سراج الدين عمر بن على بن أحمد بن الملقن (ت:٨٠٤هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق، ٢٠٠٨، ٢٢٤/٨.

(٤) صحيح البخاري، كناب الإكراه رقم (٦٥٤٥)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير رقم (١٧٦٥).

وفي هذه الحادثة رسالة إلى الدعاة، من عدم التأفف والضجر في الدعوة إلى الإسلام، حتى وإن اقتضى الأمر الذهاب إلى أهل المعاصي من المسلمين وغير المسلمين في بيوتهم، امتثالاً لما قام به (ﷺ)، وهو أسمى درجات الكمال البشري، وأنه يمثل بفعله هذا المبادئ التي يستضاء بنورها في السلوك الدعوى، وفي الحياة الاجتماعية وهو ما مكن ومهد لنشر الإسلام.

٤-**الإشادة بفضائل غير المسلمين مما يتفق مع الأخلاق الإسلامية:** فكان (ﷺ) يأخذ منهم أحسن ما عندهم ويترك ما سواها، وهو ما تجلى في تعاونه (ﷺ) قبل النبوة والبعثة مع قريش في حرب الفجار، وكان (ﷺ) يفتخر بذلك بعد بعثته، كما شارك (ﷺ) أيضاً مع قومه وعمومته في حلف الفضول، الذي نص على نصرة الضعيف، ومساعدة المحتاج، وإغاثة اللهفان ممّا يعدُّ من مكارم الأخلاق ومقوماتها، ولهذا مدحه النبي (ﷺ) بعد البعثة بقوله: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت". (١)

فهذا الحلف كان يتسم بروح الإسلام، بما انطوى عليه من الوقوف في وجه الظلم، ومحاربة العدوان والفساد، لذا كان النبي (ﷺ) يعتز بمبادئه، وما تضمن من أخلاقيات فاضلة مدحها النبي(ﷺ) تكشف عن "تصوير لمشاعر النبي الكريم وتقديره (ﷺ) لهذا الحلف الذي تحمل مسئولية العدل والأمان. لم يكن محمد (ﷺ) واحداً من الناس يوم أن استجاب إلى هذا الحلف، بل كان عملاً واستجابة من رجل مكمل صفات العمل الاجتماعي، والدعوة إلى رفع سُبل النجدة والمعروف .... لقد كان اشتراك النبي (ﷺ) في هذا الحلف من عمليات التهيئة والتوعية، ليفهم فيما بعد أن قواعد العمل الاجتماعي المبنية على الوجدان الاجتماعي المرهف والتجربة الهادفة الناجحة، إنما يكون من هذا النبي العظيم(٢).

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، رقم (١٣٠٨٠).

(٢) رءوف شلبي، بشائر النبوة الخاتمة، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

٥-**التمسك بالتعايش السلمي، واحترام التعدد الديني وتنوعه:** وهو ما يسهم في إرساء مفهوم المواطنة، من خلال المساواة بين كافة المقيمين في الوطن الواحد في التكاليف النبوية، واحترام العقائد الدينية، وهو ما تجلّى في صحيفة المدينة بعد الهجرة، والتي جمعت المسلمين وغيرهم كمواطنين في دولة واحدة، كأبرز الدلائل لوجود الدولة المدنية والقانونية التي تحترم التنوع والتعدّد، ووجوب مراعاة الحقوق المشروعة لكل المواطنين، وضمان الحماية على النفس، والمال، والأعراض، وتوفير مقومات الحياة.

وقد بلغت مواد هذه الصحيفة نحوا من الخمسين مادة: تنظم كل شئول الدولة، واعتبرت كل المقيمين في المدينة مواطنين، وحددت لكل منهم ما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات، وهو ما يحقق مبادئ التعايش السلمي وقيمه، وهو ما نصت عليه الوثيقة صراحة جاء فيها "**هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم ولحق بهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس ... وأن من تبعنا من يهود، فإن له النصرة ....وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ... وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم**"(١).

لقد تضمنت الوثيقة أو دستور المدينة مبادئ التعايش السلمي مع غير المسلمين المتثملة في الأمة الواحدة، وتقبل جوار الآخر المختلف، واحترام

(١) حميد بن مخلد بن زنجويه (ت:٢٥١ هـ)، كتاب الأموال، تحقيق: شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، ١٩٨٦، ٤٤٦/٢.

حقوق المواطنين، وتعزيز الأمن والمحافظة عليه، وحماية الأقليات غير المسلمة وغيرها من قيم التعايش "وبهذا الميثاق تكونت الدولة تكويناً قانونياً، وأصبح لها دستور تلتزم به وتدافع عنه، لا فرق بين مسلم ومسلم، ولا بين مسلم ويهودي، كلهم رعايا دولة عليهم أن يصونوا حدودها، ويحاربوا من أجلها، وليس من حق واحد منهم أن يضن عليها بنفسه أو ماله"(١).

وما من شك في أن المبادئ والركائز التي قامت عليها هذه الوثيقة تتضمن "قيماً أخلاقية، وأسساً للتعايش السلمي كالتسامح، والمساواة، والعدل، والحرية الدينية، وغيرها من أخلاقيات التعامل مع الآخر المختلف، حرص النبي(ﷺ) على تطبيقها، وقدم القدوة الحسنة في التعاون بين المسلمين وغيرهم كنموذج متفرد منقطع النظير في التاريخ الإنساني كله، عن التعايش السلمي بين مواطني الدولة مختلفي الديانات والعقائد، والتي صهرتهم في أمة واحدة و"مجتمع له طابع فذ من المدنية قدمها لنا التاريخ كثمرة للعمل المشترك، ساهم فيه جميع الطوائف الدينية التي عاشت وعملت معاً جنباً إلى جنب تحت راية الإسلام"(٢).

وما أحوج عالم اليوم إلى تمكين أخلاقيات هذه الوثيقة ومبادئها، والسير على هدى النبي (ﷺ) في تعامله مع الآخر المختلف، وهو ما يفتقده هذا العالم، فبالتأمل في الواقع المعاصر، نجد أن كل المواثيق والمعاهدات الدولية التي تدعو إلى التعايش السلمي، وتطبيق المواطنة الكاملة، أصبحت حكراً فقط على الدول القوية، وأصبح الاضطهاد الديني، والتطهير العرقي للمسلمين، سواء أكانت أغلبية كما في إثيوبيا (٣)، وألبانيا (٤)، وما الوضع الحالي

(١) إبراهيم أبو الخشب، يا رسول الله، مرجع سابق، ص ١٣٣.
(٢) محمد سليم العوا، الأقباط والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١١.
(٣) ينظر، محمد عبد الله السمان، محنة الأقليات المسلمة في العالم، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، القاهرة، د.ت، ص ٤٥-٤٧.
(٤) ينظر، أحمد محمد، فقه الجنسيات، دار الكتب الجامعية، ١٩٨٧، ص ص ٢١١-٢١٧.

لفلسطين اليوم عنا ببعيد، أم أقلية على نحو ما حدث للمسلمين في الأندلس بعد سقوطها [١]، وعلى نحو ما وجدوه في الفلبين [٢]، كل هذا أصبح بمثابة المحنة الحقيقية التي سقطت كل الدعاوي التي يتشدق بها الغرب عن الحرية، والمساواة، وقيم المواطنة، وأخلاقيات التعايش السلمي ؛ نظراً للنظرة الاستعلائية، والإحساس بالتفوق والتمييز التي ينتهجها الغرب تجاه دول العالم الثالث، وبخاصة المسلمين منهم، إذا ما نظروا إلى الشعوب التي كانوا يحكمونها، يكون التعامل بعقلية الغالب والمغلوب، ولذلك تقرر التمييز بين المواطنة بين رعية (Subject) ومواطن (Citizen) وطني (Nationalist)، تضم الأولى الذين درجتهم أدنى في الجنسية، وبالتالي في الوضع والحقوق، تليهم الثانية، ثم الثالثة أعلاهم درجة[٣].

٦-**الوفاء لمن خدم الإسلام:** كان النبي(ﷺ) مثالاً أعلى للوفاء بمن خدم الإسلام من غير المسلمين، على نحو موقفه (ﷺ) من المطعم بن عدي على شركه، فلم ينس له النبي (ﷺ) جواره له يوم رجوعه من الطائف، وأراد النبي (ﷺ) أن يرد له جميله هذا، فقال في أسرى بدر "لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له"[٤].

---

(١) ينظر، فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٢) ينظر، محمود شاكر، المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ص ص ١٣١-١٣٢، وسيد بكر، الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، ع (٢٣)، د.ت، ص ١٤٥-١٤٧.

(٣) ينظر، محمود شاكر، المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ص ص ١١٧-١١٩.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٠٢٤) من رواية جبير بن مطعم، والنتني: جمع نتن، بمعنى منتن، وسماهم النبي (ﷺ)، نتنى إما لرجسهم الحاصل من كفرهم، أو لأن به المشار إليهم هم من صارت أبدانهم جيفاً منتنة ملقاه في بئر بدر، فلو كلمة فيهم لسلمه جثثهم.

فهذا المعروف الذي تقدم به (المطعم بن عدي) يوم رجوعه من الطائف، اعتبره النبي (ﷺ) فضلاً وحسنة يجزي بمثلها، وهي صورة بشرية مذهلة من صور الوفاء، أراد النبي (ﷺ) أن يحتفظ له بأياديه البيضاء السابقة ويدخل في هذا الأمر.

وفاء النبي (ﷺ) بعهوده مع غير المسلمين، ضماناً لعنصر الثقة الذي يضمن استمرار التعامل البناء مع الآخر، وهو دليل على قوة العزيمة، وأن السلام وليد العهد يكسب قوة ومنعة. (١) هذا الأمر تجلى في قول النبي (ﷺ)، لحذيفة بن اليمان وأبي حسيل: "انصرفا، نفى لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم"(٢)، بعدما أخذ عليهما كفار قريش عدم القتال مع النبي (ﷺ) يوم بدر.

٧-**الرفقه بغير المسلمين:** حفظ الإسلام لغير المسلمين حقوقهم، فأمر بمعاملاتهم بالحسنى والرفق بهم، فأوصى (ﷺ) في إخباره بالغيب بأهل مصر بقوله: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا افتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً"(٣).

٨-**الاستعانة بغير المسلمين والانتفاع بما عندهم من علم:** فقد ثبت أن النبي (ﷺ) قد استعان بعبد الله بن أريقط، وهو على دين قريش، في ليلة الهجرة، كدليل له ولعلمه بالطرق في الصحراء (٤)، كما استعمل النبي (ﷺ) يهود خيبر في أرضها، ليزرعوها نصف ما يخرج منها؟ (٥).

---

(١) ينظر، محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، سابق، ص ٤٠ .
(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٨٧).
(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٥٤٣).
(٤) صحيح البخاري، مناقب الإجارة رقم (٢٢٦٣).
(٥) صحيح البخاري، كتاب الإجارة رقم (٢٢٨٥) وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، (١٥٥١).

*** المحور الثاني: الصلات الاجتماعية:**

ندب الإسلام البر والقسط والإحسان إلى غير المسلمين مهما كانت معتقداتهم، فأجاز الإسلام الصلات الإسلامية معهم، وحرم الاعتداء عليهم، وعلى ذلك دل القرآن في قوله تعالى: **((لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ))** "الممتحنة :٨"، في هذه الآية أن الله رخص صلة المسلمين بغيرهم ما لم يعادوا المسلمين ولم يقاتلوهم، ولا يكون اختلاف الدين مانعاً من ذلك(١).

وقد حفلت السنة النبوية بالكثير من مظاهر الصلات الاجتماعية التي أقامها النبي (ﷺ) مع غير المسلمين، ومنها على سبيل المثال:

١-**تبادل الهدايا:** لقد كان من هدى النبي (ﷺ) تبادل الهدايا مع غير المسلمين، فقد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قبل هدية (المقوقس) وهدية ملك آيلة، وهدية أكيدر دومة الجندل (٢)، كما قبل النبي (ﷺ) الشاة المهدية له من اليهودية كما أشار البحث في المحور الأول.

٢-**عيادة مرضاهم:** مما يساعد على بناء الروابط الاجتماعية مع غير المسلمين عيادتهم إذا مرضوا، وهو ما يؤتي ثماره في تقوية روابط البناء الاجتماعي بين أبناء الوطن الواحد، ففي الحديث: "كان غلام يهودي يخدم النبي (ﷺ) فمرض، فأتاه النبي (ﷺ) يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له:

---

(١) ينظر، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، ٢٠٠٢، ٩/٣١١-٣١٢، وعلى بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠ ه)، النكت والعيون (تفسير الماوردي)، تحقيق: السيد عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ٥/٥٢٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها رقم (٢٦١٥، ٢٦١٦)، وصحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة رقم (٢٠٧١).

أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم (ﷺ) فأسلم، فخرج النبي (ﷺ) وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار"(١).

قال ابن حجر: "وفي الحديث جواز استخدام المشرك وعيادته إذا مرض، وفيه حسن العهد"(٢).

٣-**احترام جنائز موتاهم:** لقد تعدى هدى النبي (ﷺ) في الصلات الاجتماعية مع غير المسلمين مرحلة الإحسان للأحياء منهم إلى الإحسان إلى مواتهم، ففي الحديث "كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقالا: إنّ النبي (ﷺ) مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال (ﷺ): أليست نفساً؟!"(٣)

٤-**التحية وإلقاء السّلام:** أجاز الإسلام ابتداء المسالمين من غير المسلمين بالتحية، فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنّ رجلاً سأل النبي (ﷺ) أي الإسلام خير؟ قال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"(٤)، فأفاد قوله (ﷺ) "وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" دخول غير المسلمين في إقرار السلام عليهم، ممّا يدخل المحبة واستمالة قلوبهم"(٥).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، رقم (١٣٥٦).

(٢) أحمد بن على بن حجر العسقلاني، (ت :٨٥٢هـ)، فتح الباري، تحقيق: عبد العزيز بن باز، دار الفكر، ٢٠٠٠، ٥٨٦/٣ .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، رقم (١٣١٢)، وصحيح مسلم، كتاب الجنائز رقم (٩٦٠).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، رقم (١٢).

(٥) ينظر، على بن خلف بن بطال (ت: ٤٤٩ هـ)، شرح ابن بطال على صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، ٥٧/١.

وفي الحديث أن النبي (ﷺ) ركب حماراً عليه إكاف، تحته قطيفة فدكيّة، وأردف وراءه أسامة بن زيد –رضي الله عنه– وهو يعود سعد بن عبادة – رضي الله عنه– في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مرّ في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة –رضي الله عنه– فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أبُي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم (ﷺ) ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن(١).

فقد أفاد الحديث جواز إلقاء التحية على غير المسلمين (٢) فإن قال قائل: وكيف نرد على غير المسلم السلام إذا ألقى علينا السلام؟ فالإجابة تكمن في أن يكتفي المسلم بقوله (وعليكم)؛ لقول النبي (ﷺ): "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم"(٣).

٥-**الزواج والمصاهرة:** ليس هناك خلاف ذو بال في جواز الزواج والمصاهرة من أهل الكتاب ؛ لقوله تعالى: ((**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ**)) "المائدة :٥"، أما الزواج بالمشركة، فهو منهي عنه حتى تؤمن؛ لقوله تعالى: ((**وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**)) "البقرة :٢٢١" هذا بالنسبة لزواج المسلم من الكتابيات والمشركات، أما زواج المسلمة من أهل الكتاب أو من المشركين فهو منهي عنه؛ لقوله تعالى: ((**وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا**)) "البقرة :٢٢١"، ولقول (ﷺ) "نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا".(٤)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان رقم (٦٢٥٤).
(٢) ينظر، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سابق، ١٠٣/٦.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان رقم (٦٢٥٨)، وصحيح مسلم، كتاب السلام رقم (٢١٦٣).
(٤) محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تفسير الطبري، تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف، د.ت، ٣٦٦/٤ .

وقد يتساءل البعض: هل تحريم زواج المسلمة بغير المسلم يعد نزعة عنصرية؟

والإجابة عن هذا التساؤل تكمن في الحكمة من وراء ذلك، فالزواج في الإسلام يقوم على المودة والرحمة، والسكن النفسي، وكل ما من شأنه أن يضمن استمرارية العلاقة الزوجية وديمومتها، فالمسلم إذا تزوج من كتابية، فإنه مأمور باحترام عقيدتها وشعائرها الدينية ؛ لأن من شرط الإسلام الإيمان بالأنبياء السابقين وبرسالتهم، وفي ذلك ضمان للأسرة وحماية لها من الانهيار، أما غير المسلم، فهو لا يؤمن بالإسلام ولا بالنبي (ﷺ)، وبالتالي فعنصر الاحترام للزوجة المسلمة يكون مفقوداً، مّما يؤثر بالسلب على الحياة الزوجية. (١)

٦-**إباحة طعامهم:** أباح الإسلام طعام أهل الكتاب، وهو ما صرح به المولى تعالى في قوله: **((الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ))** "المائدة: ٥" ولهذا، كان من هديه (ﷺ) الأكل من طعام غير المسلمين من أهل الكتاب، كما أشرنا في حديث الشاة المسمومة.

٧- **حسن الجوار لهم:** شرع الإسلام الإحسان إلى الجار، فقال تعالى: **((وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ))** "النساء: ٣٦"، والمراد بالجار الجنب، في أحد التفسيرين، هو الجار غير المسلم، مسلماً كان أم يهودياً أم نصرانياً (٢)، ومن ثمّ أوصى

(١) ينظر، د/ محمود حمدي زقزوق، هل تحريم زواج المسلمة بغير المسلم يُعدّ نزعة عنصرية؟ ضمن كتاب ! حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، سابق، ص ٦٢٨-٦٢٩.

(٢) ينظر، تفسير الطبري، سابق ٣٣٩/٨.

الإسلام بالجار والإحسان إليه، وتفقد أحواله، وقضاء حاجته، وكف الأذى عنه، وحسن العشرة معه.

وفيما يتعلق بمبدأ حسن الجوار مع المسلمين وغير المسلمين، قال النبي(ﷺ): "مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"(١).

وحذر النبي (ﷺ) من أذية الجار، وعّد ذلك من علامات نقص الإيمان، فقال (ﷺ): "والله لا يؤمن، قالها ثلاثة، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"(٢)، فدلت لفظة (الجار) على عموم الجيران، مسلمين وغير مسلمين، وحضّ النبي (ﷺ) على تعهد الجار بالهدية، فقال (ﷺ) :"يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك"(٣) فمن مكارم الأخلاق، وحسن الجوار، دفع الحاجة، فإن الجار مسلماً كان أم غير مسلم قد يتأذى برائحة طعام جيرانه، وبخاصة إذا كان فقيراً وله أطفال، أو أرملة محتاجة هي وأولادها.

وقد حدّد النبي (ﷺ) أنواع الجيران وحقوقهم، وعد منهم الجار غير المسلم بقوله: "الجيران ثلاثة، فجار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد. فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق، فهو الجار المسلم القريب، له حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. والجار الذي له حقان، هو الجار المسلم، فله حق الإسلام وحق الجوار، والجار الذي له حق واحد هو الكافر له حق الجوار"(٤).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب رقم (٦٠١٥)، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة رقم (٢٦٢٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب رقم (٦٠١٦).

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة رقم (٢٦٢٥).

(٤) سليمان بن أحمد الطبراني (ت:٣٦٠هـ)، مسند الشاميين، باب عطاء عن عمرو بن شعيب، تحقيق: حمدي عبد المجيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، رقم (٢٤٣٠).

٨-**المشاركة في جنائزهم:** قرر الإسلام مبدأ إكرام الميت وهو جثمان محمول، فقد علّم النبي (ﷺ) البشرية عندما أجاز لثابت بن قيس أن يحضر جنازة أمه النصرانية، وقال له النبي (ﷺ): "إركب دابتك وسر أمامها، فإنك إذا كنت أمامها لم تكن معها"(١).

*** المحور الثالث: التعامل المالي:**

حض الإسلام على تقديم الخدمات المالية والمعنوية لغير المسلمين، فقد ثبت أن الرسول (ﷺ) أرسل بكمية كبيرة من القمح إلى مشركي مكة في أيام القحط، وبعث خمسمائة دينار، وأمر بدفع ذلك إلى أبي سفيان، وصفوان بن أمية، فقبل الأول المساعدة، وأبى الثاني.

وهذا من باب صلة الرحم، والمعاملات المالية مع الغير من مكارم الأخلاق، وهو ما تجلى في السنة النبوية في عدد من المواقف منها:

١-**حفظ الحقوق المالية لغير المسلمين:** فقد كان من هدى النبي (ﷺ) حفظ الحقوق المالية لغير المسلمين، فقد ثبت عنه (ﷺ) أنه ضمن رد ما استعاره من سلاح من صفوان بن أمية يوم غزوة حُنين، ففي الحديث أن رسول الله (ﷺ) قال :"يا صفوان هل عندك من سلاح؟ قال: عارية أم غضباً؟ قال: لا، بل عارية، فأعاره ما بين الثلاثين إلى الأربعين درعاً، وغزا رسول الله (ﷺ) حُنيناً، فلما هزم المشركون، جمعت دروع صفوان، فقد منها أدرعاً، فقال رسول الله (ﷺ) لصفوان: إنا قد فقدنا من أدراعك أدرعاً، فهل نغرم لك؟ قال: لا يا رسول الله، لأن في قلبي ما لم يكن يؤمئذ"(٢).

---

(١) محمد بن الحسن الشيباني (ت:١٨٩هـ) شرح السير الكبير، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، باب صلة المشرك، ٧٠/١.

(٢) سليمان بن الأشعث (أبو داود) (ت: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، أبواب الإجارة، رقم (٣٥٦٣، ٣٥٦٤).

٢-**البيع والشراء:** أباح الإسلام البيع والشراء مع غير المسلمين، ففي الحديث عن عائشة -رضى الله عنها- أنها قالت: "اشترى رسول الله (ﷺ) من يهودي طعاماً بنسيئة، ورهنه درعه"(١).

٣-**الرهن:** أجاز الإسلام الرهن مقابل ما استدانه المسلم من غير المسلمين حفظاً لحقوقهم، ففي الحديث عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: "توفي رسول الله (ﷺ) ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير"(٢).

٤-**الصدقة على غير المسلم:** أباح الإسلام التصدق على غير المسلمين، ففي حديث أسماء بنت أبي بكر -رضى الله عنها-قالت: "قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله (ﷺ)، فاستفتيت رسول الله (ﷺ) قلت: وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك"(٣)؟

وكان النبي (ﷺ) يقسم لأهل الذمة من بيت المال، ففي الحديث أن رسول الله (ﷺ) كان "يقسم في أهل الذمة من الصدقة والخمس"(٤).

وما من شك في أنّ التصدق على غير المسلمين فيه تقوية للروابط الاجتماعية والتكافل الاجتماعي، كما أن فيه ترغيب وتأليف لقلوبهم، ويدخل في ذلك الصدقة المسنونة كصدقة الفطر، لسد حاجاتهم، امتثالاً لقوله تعالى: **((لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع رقم (٢٠٩٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٢٩١٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب رقم (٢٦٢٠)، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة رقم (١٠٠٣).

(٤) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت:٢٣٥هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف، دار التاج – لبنان – وكتبة الرشد – الرياض، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ١٩٨٩، كتاب الزكاة رقم (١٠٤٠٩).

وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)) "البقرة :٢٧٢"، وقد نزلت هذه الآية في أناس من المسلمين لهم أنساب وقرابة مع اليهود، فكانوا لا يتصدقون عليهم ويريدونهم الدخول في الإسلام، فأنزل الله تعالى الآية، فسارع الناس فتصدقوا عليهم"(١).

*** المحور الرابع: حرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم:**

حرص الإسلام على صيانة غير المسلمين، وعدم تعريضهم للأذى والظلم، وبخاصة إذا كانوا معاهدين، ومستأمنين، وذميين، فقد حرّم الإسلام على المسلم أن يعتدي عليهم بالضرب، أو الغش، أو القتل، وهو ما تجلى في تعامل النبي (ﷺ) مع غير المسلمين، والذي اتخذ صوراً عدة منها:

١-**النهي عن قتله:** أكد النبي (ﷺ) على حماية المسالمين من غير المسلمين، فنهى عن قتلهم، تأكيداً لحرمة النفس البشرية، فقال (ﷺ): "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد في مسيرة أربعين عاماً"(٢)، وفي هذا تحذير شديد من النبي (ﷺ) من التعرض بالقتل لأي إنسان، حتى وإن كان من غير المسلمين غير المحاربين ؛ امتثالاً لقوله تعالى: **((مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا))** "المائدة :٣٢"

٢-**النهي عن إيذاء غير المسلمين:** نهي النبي (ﷺ) عن إيذاء غير المسلمين، سواء أكان جسدياً أم لفظياً، ففي الحديث "بينما يهودي يعرض سلعته، أعطى بها شيئاً كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى

---

(١) أبو عبد الله بن على الرازي الجصاص (ت:٣٧٠ هـ)، أحكام القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٣٥ هـ، ٤٦٢/٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجزية، رقم (٣١٦٦).

على البشر، والنبي (ﷺ) بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم: إن لي ذمة وعهداً، فما بال فلان لطم وجهي، فقال: لم لطمت وجهه، فذكره، فغضب النبي (ﷺ) حتى رئى في وجهه"[١].

كما نهي النبي (ﷺ) عن إيقاع الإيذاء باللفظ والقول على غير المسلمين، ففي الحديث قال رسول الله (ﷺ): "من قذف ذمياً حد يوم القيامة بسياط من نار"[٢].

٣-**تحريم ظلمه:** جعل النبي (ﷺ) من نفسه خصماً لكل من يظلم مواطنا غير مسلم، أو يبخسه شيئاً من حقوقه، أو يغشه في البيع والشراء، فقال (ﷺ): "ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة".[٣] ولاشك في أن هذا التعامل النبوي يُعدّ دعامة أساسية للوحدة الوطنية بين جميع أبناء الوطن الواحد.

*** المحور الخامس: إقرار الحرية الدينية:**

من الحقوق التي كفلها الإسلام لغير المسلمين، حرية التدين الذي جاء الإعلان عنه في محكم التنزيل في قوله تعالى: **((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ))** "البقرة: ٢٥٦"، فلا إكراه لغير المسلم بأن يترك دينه للدخول في الإسلام، وبموجب هذا الإقرار، التزم المسلمون بعدم التدخل في شئون المواطنين غير المسلمين الدينية.

وقد كان من هدى النبي (ﷺ) ألا يكره أحداً على الدخول في الإسلام، أو يجيز لأحد من المسلمين إجبار الغير على الدخول فيه، ففي الحديث عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: "كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء رقم (٣٤١٤).
(٢) الطبراني، مسند الشاميين، مسند مكحول الشامي رقم (٣٣٨٤).
(٣) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة رقم (٣٠٥٢).

نفسها إن عاش لها ولد أن تهودّه، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عزّ وجل: ((**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**)) "البقرة :٢٥٦" [١] فالحديث يدل على النهي عن إكراه الغير على الإسلام.

وقد صالح النبي (ﷺ) عدداً من غير المسلمين على أن يبقوا على دينهم، دون إلزام لهم على دخول الإسلام، على نحو ما جاء في صحيفة المدينة المشار إليها، والتي كان من نصوصها "وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"[٢].

وعاهد النبي (ﷺ) نصاري نجران على أن يبقوا على دينهم، ففي الحديث عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال "صالح رسول الله (ﷺ) أهل نجران على أن لا تهدم لهم بيعة، ولا يخرج لهم قس، ولا يفتنوا عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً، أو يأكلوا الرّبا"[٣].

وبناءً على ما سبق، وغيره كثير، يمكن القول بأن تعامل النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في وقت السلم، كان قائماً على التسامح والرحمة والعدل، فكان تعامله (ﷺ) معهم خير شاهد على تمتع غير المسلمين بالكرامة الإنسانية والحرية في كافة مناحي الحياة، وذلك أصل في التعايش السلمي، واحترام الحقوق.

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الجهاد رقم (٢٦٨٢) والمقلات: هي المرأة التي لا يعيش لها ولد.

(٢) ابن زنجويه، كتاب الأموال، سابق، ٤٦٦/٢.

(٣) أبو داود، السنن، كتاب الخراج والإمارة والفيء رقم (٣٠٤١).

المبحث الثاني

علاقة النبي (ﷺ) بغير المسلمين في وقت الحرب

تكمن إشكالية الحديث عن أخلاق الحرب في تكريس الفهم الخاطئ بمصطلح (الحرب) نفسه، بوصف الحديث عنها يعدّ نوعاً من المتناقضات ؛ نظراً لما يثيره هذا المصطلح من دلالات الهدم، والدمار، والخراب، وبالتالي لا يتخيل وجود أخلاق في الحرب.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الإسلام عندما تعامل مع هذا المصطلح أعطاه مضموناً خاصاً ومعنى متميزاً بما يتماشى مع الشرعية والأخلاق، فأكثر من استعمال كلمة (الجهاد) بدلاً من (الحرب)، سواء في القرآن أم في السنة أم في عرف الفقهاء، مّما يدل على أنّ القتال في الإسلام له أخلاقيات نابعة من الرؤية الإسلامية المتمثلة في أنّ الحرب إنّما يلجأ إليها كإجراء استثنائي وأخير ؛ لدفع العدوان والاعتداء، والدفاع عن الأرض والعرض [1]، وإن شئت القول: إن طريق الحرب من أهداف، وأساليب، وضوابط، ووسائل لابد أن تكون وفقاً لتوجيهات إلهيه، أشار إليها القرآن الكريم في غير موضع، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ((**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**)) "البقرة :١٩٠"، وقوله تعالى: ((**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**)) "النساء:٧٥".

ومن ثمّ، فإن الحرب في الإسلام لها أهدافها ومبرراتها، ولم تكن لاغتصاب ثروات الشعوب ومقدراتها والهيمنة عليها وإذلالها، كما هو الحال اليوم، وإنما كانت حروباً إنسانية لها آدابها وأخلاقياتها، ولم تكن سوى وسيلة لإقرار السّلم ((**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ**

(١) ينظر، عبدالوهاب خلاف، السياسة الشرعية، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧، ص٨٥.

كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠))) "الآيات ٨٣-٤٠ من سورة الحج"، فالحرب في الإسلام وسيلة وليست غاية، حتى إنها وصفت بالأمر المكروه الإجباري **((كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ))** "البقرة: ٢١٦".

ولعلنا يحق لنا أن نقول: إنّ القيم الأخلاقية المتبعة في الحروب تعدُّ جزءاً لا يتجزأ من النظام الإسلامي الشامل ؛ لأن هذه القيم هي الخاضن للسلوك الإسلامي، والتطبيق العملي لما حض عليه القرآن والسنة النبوية، وهي توجيهات تختلف عن توجيهات المذابح الجماعية والتطهير العرقي في الحروب الحالية.

هذه الإشارات البسيطة تعدُّ مقدمات ومسوغات لتصويب الصورة الحقيقية لحروب النبي (ﷺ) والمسلمين.

بصفة عامة، التي شوهت ودارت حولها الشبهات على أيدي كثير من المتعصبين الغربيين، الذين تناسوا عن عمد التاريخ الدموي للحضارة الغربية قديماً وحديثاً، وروجوا المقولات مغلوطة بأن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن الحضارة الإسلامية هي حضارة القتل واستخدام القوة، وهي مقولات دحضتها شهادات أوربية منصفة وموضوعية يصعب استقصائها، ويكفي للتدليل على كذبها شهادة المستشرق الإنجليزي (توماس أرنولد) التي قال فيها :" إن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق ... إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى[١].

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠، ص ١٠٢.

ومن هنا، يأتي هذا المبحث لعرض جزء من أخلاق النبي (ﷺ) وهديه في تعامله الحرب مع غير المسلمين، بوصفها ممارسات قرآنية، وترجمة واقعية وصادقة لها، فلم يختف في حروبه (ﷺ) الجانب الأخلاقي، بأن جعلها آخر الدواء، وسبقها طرق عدة لتجنبها، ولم يكن (ﷺ) يتمناها، فقال (ﷺ) لأصحابه: "لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية"[1].

وتأتي دراسة هدى النبي (ﷺ) في تعامله مع غير المسلمين في حالة الحرب في المحاور الآتية:

***المحور الأول: بواعث حروب النبي (ﷺ) وأسبابها:**

لم تخرج حروب النبي (ﷺ) عن المنهج القرآني، الذي وردت فيه آيات قرآنية قطعية الدلالة تحدّد أسبابها وغاياتها، ولم تكن حروبه (ﷺ) لتحليل القتل، والنهب، والانتقام من غير المسلمين، كما أنها لم تكن وسيلة أتى بها النبي (ﷺ) لم يسبقه إليها أحد من الرسل من قبل، وإنما كانت شريعة من سبقه من رسل الله ؛ لإعلاء كلمتي الحق والدين، وفي ذلك يخبرنا ربّ العالمين عن جهاد الرسل عامة بقوله سبحانه **((وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِير فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُم فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱستَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ))** ."آل عمران: ١٤٦"

وعلى هذا الدرب، سار أنبياء الله؛ لانتشال الناس من الظلمات إلى النور، فقد أخبرنا الله عن جهاد موسى –عليه السلام–[2]، وداود –عليه السلام–[3]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٢٨٠٤)، وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير رقم (١٧٤٢).

(٢) قال تعالي على لسان موسى –عليه السلام–: **((يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ))** "المائدة ٢١.

(٣) كان داود –عليه السلام– مجاهداً في صفوف جيش (طالوت)، وقتل طالوت. قال تعالى: "**((فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ))** "البقرة :٢٥١.

وسليمان –عليه السلام–[١]، بما يدل على أن الحرب ليست محدثة في الإسلام، بل كانت شرائع الأنبياء والملوك السابقين، وإن كانت حروب النبي (ﷺ) والمسلمين من بعده لتأصيل القيم الأخلاقية المستمدة من وحي السماء لا من النظرة البشرية القاصرة التي تعصف بها المطامع والأهواء، بل إنّ المتأمل في تشريع الجهاد والحرب، يجد أنه قد مرّ بمراحل عدة هي: الكف عنه [٢]، والإذن به [٣]، وقتال من قاتل المسلمين [٤]، بما يدل دلالة قاطعة على أنّ الحرب لم تكن مفروضة منذ فجر الدعوة المحمدية.

وهي مراحل تتضمن دلالات قطعية على أنّ الحرب في الإسلام كانت لغايات وأهداف أخلاقية شديدة الوضوح إلاّ أنّ "التعصب والتجاهل بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف، والإصرار على جعله طرفاً في الصراع وموضوعاً للمحاربة، أحدث لبساً شديداً في مفهوم الجهاد عند المسلمين، حتى شاع أنّ الإسلام يدعوا إلى الحرب وإلى العنف"[٥].

---

(١) جاهد سليمان –عليه السلام– أعداء كلمة التوحيد، وحشر لهم جنوداً من فئات عدة كما قال تعالى: ((**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**)) "النمل: ١٧".

(٢) **قال تعالي: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ))** "النساء :٧٧"

(٣) قال تعالي: ((**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**)) "٣٩ –٤٠ من سورة الحج.

(٤) قال تعالي: ((**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**)) "البقرة :١٩٠".

(٥) ناصر محمد، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، دار الميمان للنشر والتوزيع، السعودية، ١٤٣٢ هـ، ص ٧.

وتتساقط هذه الافتراءات حين نقف أمام غايات الحرب في الإسلام وأهدافها وكيفياتها على نحو ما أشرت في البحث من دفع عدوان المعتدين، ومنع الفتنة في الدين، ونصرة المستضعفين، وقتال البغاة وغيرها من الدوافع النبيلة والأخلاقية.

لماذا تتساقط هذه الأكاذيب وتتهاوى أمام معرفة أسباب حروب النبي (ﷺ) وبواعثها وفق رؤية نبوية واضحة المعالم، قائمة على الرؤية والتأني والدعوة إلى الإسلام، فعندما أرسل النبي (ﷺ) الإمام على بن أبي طالب إلى خيبر أوصاه قائلاً :"انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حمرُ النَّعم"(١).

فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا حارب النبي (ﷺ)؟ ولماذا شارك بنفسه (ﷺ) فيها؟

إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات تكمن في عرض أسباب حروب النبي(ﷺ)؛ لتعليل ذلك، بما يكشف عن أنّ النبي (ﷺ) لم يكن في حروبه أو غزواته بادئاً بالحرب، وإنّما دُفع إليها وأُجبر على خوضها.

أولاً: الدفاع عن النفس والدين:

لم تأت حروب النبي (ﷺ) إلاّ بعد ما تعرض له المسلمون من تهجير قسري من ديارهم، وحرموا من الوطن الآمن ومن أموالهم، فكان لابد من ردّ الاعتبار، ومحاربة منْ بدءوا المسلمين بالعدوان والظلم من مشركي مكة. قال تعالى: **((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ**

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي رقم (٣٩٧٣)، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٤٠٦).

النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠))) "الحج ٣٩-٤٠"، فعلة قتال المشركين واضحة، فكان الرد الحازم على تجاوزاتهم، لاسترداد الحقوق والأموال، فكانت معركة (بدر) تجسيداً حقيقياً لرد الظلم الواقع على المسلمين مادياً ومعنوياً، على الرغم من أن قريش كان بإمكانها أن ترجع بجيشها بعد نجاة قافلة (أبي سفيان)، غير أن قريش أصرت على محاربة النبي (ﷺ) وأقبلت كما قال (ﷺ): "بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك"[١].

الأمر نفسه نجده في عزوتي (أحد، والخندق)، فلم تكن هاتين المعركتين سوى ردّ على عدوان المشركين، ودفاع عن النفس وعن الوطن / المدينة.

وفي صلح الحديبية آثر النبي (ﷺ) السّلم على الحرب، ورجع (ﷺ) والمسلمون عن أداء العمرة، وتفادى القتال مع مشركي قريش، وقال (ﷺ): "والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"[٢].

ثانياً: تأديب ناقضي المعاهدات:

كان من أسباب حروب النبي (ﷺ): الرد على نقض المعاهدات وبخاصة من قبل اليهود، الذين نقضت قبائلهم العهود التي قطعوها مع النبي (ﷺ) باحترام الآخر، والدفاع المشترك عن المدينة، ولكنهم خانوا هذه الاتفاقيات، على نحو ما كان من بني قريظة الذين ساندوا الأحزاب، وكذلك يهود خيبر، فكان لابد من محاربتهم وإجلائهم من المدينة.

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير (ت :٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت ٢٦٨/٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشروط رقم (٢٧٣١).

ثالثاً: تأمين حدود الدولة الإسلامية:

دأبت بعض القبائل الموالية للروم، والواقعة على أطراف الدولة الإسلامية الناشئة، التعدي والإغارة على حدودها، والتعرض لقوافل المسلمين، وإقامة التكتلات الحزبية فيما بينها، على نحو ما كان من قبائل فضاعة وغسان من أهل دومة الجُندل، وعلى نحو ما كان من الغساسنة، فما كان من النبي (ﷺ) إلاّ العمل على ردعهم، وإرسال الحملات التأديبية لتأمين حدود الله[1].

وبالتأمل في هذه الأسباب، تسقط معها كل الادعاءات والشبهات التي أثارها أعداء الإسلام حول حروب النبي (ﷺ) بصفة خاصة، والفتوحات الإسلامية بصفة عامة، منها الادعاء بأنّ الإسلام انتشر بحدِّ السيف، ويحبذ العنف، وهو ادعاء قديم قد تولى الرد عليه الكثير من الكتاب الغربيين أنفسهم منهم (توماس أرنولد) على نحو ما سبق ذكره، إلى جانب الكثير من الكتاب الإسلاميين.

والحق الذي يصدقه الواقع أنّ حروب النبي (ﷺ) والمسلمين من بعده كانت وسيلة وليست غاية في نفسها، لما تؤول إليه حُسن مقاصدها وأهدافها، وهو ما اتفقت عليه كلمة الفقهاء[2].

وما يؤكد أن انتشار الإسلام كان بالدعوى لا بالسيف، أن النبي (ﷺ) قد مكث ثلاثة عشر عاماً، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان من

---

(١) ينظر، محمد بن منيع ابن سعد البصري (ت:٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ٢/٦٤-١٢٨ .

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر:

- العز بن عبد السلام: (ت:٦٦٠هـ)، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرءوف، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٩١، ١/١٣٢.
- عثمان بن محمد البكري: (ت:١٣١٠هـ)، إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د.ت ٤/٢٠٦.

نتاج هذه المرحلة أن دخل في الإسلام خير المسلمين من الأشراف وغيرهم، كما أنّ الأحداث التاريخية قد أثبتت أن الإسلام انتشر بقوة تعاليمه التي رغبت ملوك التتار فيه. وقد أورد (العقاد) دليلاً واقعياً على ذلك فإن "البلاد التي قلت فيها حروب الإسلام، وهي البلاد التي يقيم فيها اليوم أكثر مسلمي العالم، وهي بلاد إندونسية والهند، والصين، وسواحل القارة الإفريقية، وما يليها من سهول الصحاري الواسعة".(١)

ويؤكد على ذلك أيضاً أن "انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وخارجها، كان وفق معدلات متناسبة تماماً من الناحيتين الكمية والكفية، مع التطور الطبيعي لحركة الدعوة الإسلامية، ولا يوجد في هذه المعدلات نسب غير طبيعية أو طفرات تدل على عكس هذه الحقيقة، والجدول الآتي يوضح هذه النسب.

السنوات بالهجري	فارس	العراق	سوريا	مصر	الأندلس
نسبة المسلمين مع نهاية أول مائة عام	٥%	٣%	٢%	٢%	أقل من ١%
السنوات التي صارت النسبة فيها ٢٥% من السكان	١٨٥	٢٢٥	٢٧٥	٢٧٥	٢٩٥
السنوات التي صارت النسبة فيها ٥٠% من السكان	٢٣٥	٢٨٠	٣٣٠	٣٣٠	٣٥٥
السنوات التي صارت النسبة فيها ٧٥% من السكان	٢٨٠	٣٢٠	٣٨٢	٣٨٥	٤٠٠

(١) عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، دار النهضة المصرية، د.ت، ص ٢٠٢.

وكان من خصائص هذا الانتشار:

- عدم إبادة للشعوب.
- جعلوا العبيد حكاماً.
- لم يفتحوا محاكم تفتيش.
- ظل اليهود والنصارى والهند في بلادهم.
- تزاوجوا من أهل تلك البلاد، وبنوا أسراً وعائلات على مر التاريخ. (١)

*** المحور الثاني: أخلاق النبي (ﷺ) مع غير المشركين قبل بداية الحرب:**

وضع النبي (ﷺ) آداباً للحرب، تحدّ من استخدام القوة المفرطة قبلها، ومن هذه الآداب والضوابط:

١-**الترغيب في الإسلام:** كان النبي (ﷺ) يوصى قادة الجيوش بترغيب المحاربين من غير المسلمين إلى الإسلام قبل إعمال السيف، فها هو يدل أصحابه أن هداية الخلق أفضل من حمر النعم، فقد قال النبي (ﷺ) لعلي – رضي الله عنه– يوم خيبر: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمرُ النعم"(٢).

٢-**التثبت من موقف المحاربين وعقيدتهم:** أمر الله تعالى المسلمين أن يتثبتوا من موقف من يقاتلونهم وعقيدتهم، فإن كانوا على الإسلام أو يخفونه فلا يجوز قتالهم ومحاربتهم، فقال تعالى: **((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا**

---

(١) د/ على جمعة، الإسلام انتشر بالسيف ويحبذ العنف، ضمن كتاب، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، سابق، ص ص ٤٤٣-٤٤٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٢٩٤٣).

ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)) "النساء :٩٤" وقال سبحانه: **((وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا))** "الفتح :٢٥" وعلى هذا الدرب، سار النبي (ﷺ) في حروبه، فكان يثبت من عقيدة المحاربين له قبل محاربتهم، فعن أنس –رضي الله عنه– قال :"كان رسول الله (ﷺ) إذا غزا قوماً لم يغزه حتى يصبح، فإن سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع آذانا أغار بعدما يصبح".

(فإن سمع آذاناً أمسك) دليل على الحرص على التثبت من حقيقة عقيدة المحاربين للإسلام، فإن سمع منهم شعائر الدين، وأظهرها الصلاة وعلامتها النداء، يمتنع قتالهم.

٣-**الحرص على السّلام:** سبق وأن أشرت في البحث إلى حرص الإسلام على إقامة دعائم السلام والأمن، وهو ما حرص النبي (ﷺ) على إرساء قواعده، فكان (ﷺ) ينهي أصحابه عن تمنى لقاء العدو، فقال (ﷺ) :"لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية". ففي الحديث حرص على تقديم السلام على الحرب، من خلال النهي (لا تتمنوا).

٤-**وصاياه (ﷺ) لقادة الجيوش:** كان النبي (ﷺ) إذا أمّر أميراً على جيش أو سريه يوصيه بقوله :"اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم)[١].

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير رقم (١٧٣١).

كما وضع النبي (ﷺ) دستوراً أخلاقياً لقادة هذه الجيوش، حدّد فيه عدم التخريب، أو إزهاق أرواح غير المسلمين من غير المقاتلين، فقد نهى النبي (ﷺ) عن قتل من ليسوا من أهل القتال، كالشيوخ، والأطفال، والنساء، فعن أنس –رضي الله عنه– أن النبي (ﷺ) قال :"لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة"(١).

كما نهى النبي (ﷺ) عن قتل الرهبان، فكان (ﷺ) إذا بعث جيوشه يقول موصياً: ".... ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع"(٢).

كما حرص النبي (ﷺ) على حماية الممتلكات العامة والخاصة، ورفض مبدأ إتلافها وتخريبها إلاّ للضرورة، حرصاً منه على ديمومة العمران واستمراريته، فعن خالد بن زيد –رضي الله عنه– أن النبي (ﷺ) قال: "... ولا تقطعن شجرة ولا تعقرن نخلاً، ولا تهدموا بيتاً" (٣)، ولا يكون ذلك إلاّ لضرورة حربية، فعن على –رضي الله عنه– أن النبي (ﷺ) قال: "..... ولا تعقرن شجراً إلا شجراً يمنعكم قتالاً، أو يحجز بينكم وبين المشركين"(٤).

*** المحور الثالث: أخلاق النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في أثناء الحرب والقتال:**

التزم النبي (ﷺ) بالكثير من الأخلاق النبيلة مع أعدائه في أثناء اشتعال نار الحروب، وفق منهج أخلاقي متكامل لمعاملة غير المسلمين. ومن هذه الأخلاق:

١–**منع قتال من أسلم:** ظهر هذا الخلق جلياً في مواقف عدة من حروب النبي(ﷺ) وأبان عظم ذلك، حتى وإن كان قالها المحارب غير المسلم لينجو من القتل، والشاهد على ذلك أن النبي (ﷺ) لما بعث أسامة بن زيد

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، رقم (٢٦١٤).
(٢) مسند الإمام أحمد رقم (٢٥٩٢).
(٣) السنن الكبرى للبيهقي، باب ترك قتل من لا قتال فيه، رقم (١٨٦٢٠).
(٤) السابق، حديث رقم (١٨٦١٩).

-رضي الله عنه- في سرية غالب، فحاربهم حتى هزمهم، وفرّ رجل منهم وهو (ابن مرداس) فتبعة أسامة ورجل من الأنصار، ولما اقتربا منه وأوشكا على قتله قال الرجل: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري وتركه، أمّا أسامة فظن أنه قالها خوفاً من القتل، فطعنه برمحه فقتله، فلما قدموا المدينة بلغ النبي (ﷺ) ذلك فقال: "يا أسامة، أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ فأجاب أسامة: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً (أي قالها لينجو بها من القتل) فكرّر الرسول (ﷺ) قوله: أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قال أسامة: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم".[١] وفي ذلك دليل على حرص النبي (ﷺ) على حماية الأرواح وحقن دمائها، فكان إنكاره (ﷺ) على أسامة فعلته هذه.

٢-**الحرص على الكرامة الإنسانية للمقاتلين:** حرص النبي (ﷺ) على حفظ كرامة المقاتلين من غير المسلمين في أثناء الحرب، فنهى (ﷺ) عن التمثيل بقتلاهم وتشويه جثثهم، فقال (ﷺ) " ..... ولا تمثلوا" وكان (ﷺ) يقول: "إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه"[٢].

وعلى الرغم مما صنعه مشركو قريش من التمثيل بجثث المسلمين يوم أحد ومنهم حمزة -رضي الله عنه- فإن النبي (ﷺ) لم يمثل بجثثهم وقال: "نصبر ولا نعاقب"[٣]، فلم يعاملهم النبي (ﷺ) بالمثل.

ومن مظاهر ذلك أيضاً، نهى النبي (ﷺ) الإجهاز على الجرحى، حيث أرشد (ﷺ) أصحابه في فتح مكة إلى هذا الخلق بقوله: "ألا لا يجهزن على جريح، ولا يتبعن مدبر، ولا يقتلن أسير، ومن أغلق عليه بابه فهو أمن"[٤].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٢٦٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العتق رقم (٢٥٥٩).

(٣) سبق تخريجه، ص ٣٦.

(٤) محمد بن يوسف الصالحي، سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلى معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣، ٢١٨/٥.

٣-**النهي عن قتل من أمنه المسلمون:** كان من هدى النبي (ﷺ) حفظ عهد غير المسلمين والنهي عن قتل المستأمنين منهم، ففي فتح مكة فر رجلان من المشركين واستجار بأم هانئ بنت أبي طالب، وأراد على -رضي الله عنه- قتلهما، فأخبرت أم هانئ النبي (ﷺ) خبر الرجلين وخبر أخيها على -رضي الله عنه-، فقال لها النبي (ﷺ) :"قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت فلا يقتلهما"(١).

٤-**النهي عن قتل المدنيين:** نهي النبي (ﷺ) عن قتل المدنيين من غير المسلمين الذين لم يشاركوا في القتال، حتى وإن شارك أهلوهم وذووهم فيه، حيث أنكر النبي (ﷺ) قتل المرأة والذرية، فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه قال: "وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله (ﷺ)، فنهى رسول الله (ﷺ) عن قتل النساء والصبيان"(٢).

٥-**قبول إنهاء الحرب:** كان النبي (ﷺ) حريصاً على وقف القتال متى وجد إلى ذلك سبيلاً، ولم يكن (ﷺ) يغلق باب السلام، إذا رغب العدو في ذلك، ففي غزوة خيبر، صالح النبي (ﷺ) يهودها على حقن دمائهم، ويخلون بينه وبين ما كان لهم من الأرض والأموال وغيرها وقال لهم (ﷺ): "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتم شيئاً، فصالحوه على ذلك"(٣).

*** المحور الرابع: أخلاق النبي (ﷺ) في تعامله مع غير المسلمين بعد انتهاء الحرب:**

بعد انتهاء أي معركة خاضها النبي (ﷺ)، لم يتباه (ﷺ) بانتصاراته، وإنما عمل على إرساء ما جاء به من تدعيم القيم الأخلاقية الروحية وتمكينها في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة رقم (٣٥٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٣٠١٥).

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١، ٣٧٦/٣.

نفوس أعدائه (ﷺ) قبل المسلمين، بحيث كانت تعاملاته بعد انتهاء الحروب امتداداً لهديه (ﷺ) قبلها وفي أثنائها، وهو ما تجلّى في عدد من المواقف منها:

١-ترسيخ مبدأ الحرية الدينية:

كفل الإسلام للمخالفين له في العقيدة البقاء على دينهم، فقال تعالى: **((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ))** البقرة :٢٥٦"

وقد امتثل النبي (ﷺ) للتوجيه القرآني، وكفل الحرية الدينية لغير المسلمين بعد القدرة عليهم، على نحو ما كان في وثيقة المدينة.

أما في حروبه (ﷺ) وغزواته، فكان التطبيق العملي لهذا المبدأ في أبهى صوره، فلم يكره النبي (ﷺ) ثمامة بن أثال على الإسلام، وأطلقه في اليوم الثالث من أسره، فلما رأى ثمامة من حسن خلق النبي (ﷺ) دخل في الإسلام، فاغتسل ودخل المسجد وقال:" أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله"(١).

ولما فتح النبي (ﷺ) مكة لم يشترط على أهلها الإسلام، فعفا عنهم، وقال لهم :"اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وروي جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما–: قال: قاتل رسول الله (ﷺ) محارب خصفة بنخل، فرآوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث، حتى قام على رأس رسول الله (ﷺ) بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله (ﷺ) السيف وقال: من يمنعك منى؟ قال: كن خير آخذ، قال: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: لا، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى أصحابه، فقال جئتكم من عند خير الناس"(٢).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٧٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي رقم (١٣٩٠٥)، ومسلم، كتاب الفضائل رقم (٨٤٣).

٢-الوفاء بالوعد:

لم ينس النصر النبي (ﷺ) الوفاء بما وعد غير المسلمين به، فقد روي ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله (ﷺ) قال يوم الطائف: "من خرج إلينا من العبيد فهو حر، فخرج عبيد من العبيد فيهم أبو بكرة، فأعتقهم رسول الله (ﷺ)"[١].

٣-دفن موتى غير المسلمين:

لم يترك النبي (ﷺ) جثث قتلى المحاربين من غير المسلمين فريسة للوحوش وسباع الطير ينهوشونها ويمثلون بها، وإنما حرص على دفنها ومواراتها، ففي غزوة بدر أمر النبي (ﷺ) بموارة جثث قتلى المشركين في آبار بدر[٢].

٤-حسن معاملة الأسرى:

لقد حث الإسلام على الرفق بالأسرى وحسن معاملتهم والعطف عليهم، وعدم إيذائهم بدنياً أو معنوياً أو تجويعهم، حتى يتم الحكم عليهم؛ لقوله تعالى: ((**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**))"الإنسان :٨"

وقد برزت حسن معاملة الأسرى في سيرة النبي (ﷺ)، وذلك من خلال مواقف عدة، فبعد الانتصار في غزوة بدر، أوصى النبي (ﷺ) بالأسرى خيراً، فلم يأمر بتعذيبهم أو الإساءة إليهم أو تكميمهم أو توثيقهم، فكانوا في ضيافة المسلمين يأكلون من أجود طعامهم، فعن أبي عزيز بن عمير قال: "كنت في الأساري يوم بدر، فقال النبي (ﷺ): استوصوا بالأساري خيراً،

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي رقم (١٨٦٢٢).

(٢) ينظر، فتح الباري، ٢٥٤/٧.

وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم أكلو التمر وأطعموني الخبز بوصية رسول الله (ﷺ) إياهم"[١].

وفي الغزوة ذاتها، قبل النبي (ﷺ) فداء أسرى المشركين بمقابل [٢]، وكذلك قبل (ﷺ) المن على الأسير من (مطعم بن عدي) لو كان حياً، امتثالاً لقوله تعالى: **((فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ))** "محمد :٤" .

كما كان النبي (ﷺ) حريصاً على تلبية احتياجات الأسرى المادية والمعنوية، فعن عمران بن حصين –رضي الله عنه– قال: "أسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله (ﷺ)، وأسر أصحاب رسول الله (ﷺ) رجلاً من بني عقيل، فأتى عليه رسول الله (ﷺ) وهو في الوثاق، قال: يا محمد، فأتاه فقال: ما شأنك؟ فقال: بم أخذتني؟ وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال: إعظاماً لذلك أخذتك بجزيرة حلفائك ثقيف، ثم انصرف عنه فناداه، فقال: يا محمد ! يا محمد !، وكان رسول الله (ﷺ) رحيماً رقيقاً، فرجع إليه فقال: ما شأنك؟ قال: إني مسلم . قال: لو قلتها وأنت تملك أمرك، أفلحت كلّ الفلاح، ثم انصرف فناداه فقال: يا محمد! يا محمد! فأتاه فقال: ما شأنك؟ قال: إنيّ جائع فأطعمني، وظمآن فأسقني، فقال: هذه حاجتك"[٣].

كما أمر(ﷺ) بكسائهم، فعن جابر –رضي الله عنه– قال: "لو كان يوم بدر أُتى: بأناس وأتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي (ﷺ) له

---

(١) سليمان بن أحمد الطبراني (ت:٣٦٠ــ)، المعجم الصغير، تحقيق محمد شكور، ومحمود أمرير، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، باب من اسمه الحسين، رقم (٤٠٩).

(٢) كان ممّن افتدى نفسه العباس عم النبي (ﷺ) كما رواه البخاري في صحيحه في القسمة رقم (٤٢١).

(٣) صحيح مسلم، كتاب النذر، رقم (١٦٤١).

قميصاً، فوجد قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي (ﷺ) إياه"[١].

٥-وكما تجلت أخلاقه (ﷺ) في تعاملاته مع المحاربين من غير المسلمين في أوقات الانتصار، فقد تجلت أيضاً بصورة مشرقة في أوقات عدم تحقيق النصر، ففي غزوة أُحد، على الرغم ممّا أصاب المسلمين، فقد نهي النبي(ﷺ) عن معاملة قتلي قريش بالمثل، فلم يمثل بهم، فلما كان فتح مكة أراد المسلمون معاقبة قريش بمثل ما قاموا به في أحد فقال (ﷺ): "كفوا عن القوم إلا أربعة".[٢]

كما تناسى النبي (ﷺ) أفعال قريش معه في أُحد، ودفع دية رجلين من مشركي بني عامر، بعد أن قتلهما (عمرو بن أمية) ثأراً لقتلى أحد، فلم يأخذهما النبي (ﷺ) بجريرة مشركي قريش، وقال لعمرو بن أمية: "لقد قتلت قتيلين لأدّينهما"[٣].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٣٠٠٨).

(٢) محمد بن عيسى الترمذي (ت:٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٥، باب تفسير سورة النحل حديث رقم (٣١٢٩).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٨٥/٤.

الخاتمـــة

أ-النتائج:

عالج هذا البحث (الهدى النبوي في التعامل مع غير المسلمين سلماً وحرباً) انطلاقاً من أن ثمة وشائج تربط بين أخلاق النبي (ﷺ) وبين هاتين الحالتين اللتين تنطلقان بعيداً عن همجية التعاملات العدائية التي تحكم العلاقات المعاصرة، مما يشي بأن تعاملات المسلمين مع غيرهم، طوال تاريخهم، لها أصولها التأسيسية في الهدي النبوي، عبر خصوصية تخرج عن المألوف المترسخ من أن القوة وحدها هي التي تحدد العلاقات بين الدول.

وقد انتهيت في البحث من دراسة الهدى النبوي في هذه الجزئية إلى عدد من النتائج أهمها:

١-أن الإسلام دين سلم وليس دين إرهاب أو عنف، وأن التجربة النبوية، في التعامل مع غير المسلمين في السلم والحرب، تعد نموذجاً فريداً لتأصيل القيم الخلقية وترسيخها في هذا التعامل القائم على احترام الآخر المخالف.

٢-أن هدى النبي (ﷺ) في هذا التعامل يتوافق مع الرؤية القرآنية التي كانت في غاية التسامح وقبول الآخر.

٣-غياب هذه القيم الأخلاقية في غالبية العلاقات القائمة الآن بين الدول، والتي جعلت من الحرب غاية وليست وسيلة لإقرار السلام، على نحو ما كانت حروب النبي (ﷺ).

٤-تساقطت الادعاءات الغربية التي ادعت زوراً بأن الحضارة الإسلامية قامت على الترويع والقتل، وذلك بشهادة المفكرين المنصفين من أبنائها.

٥-ظهور النزعة الإنسانية في تعاملات النبي (ﷺ) مع غير المسلمين، تبعاً للتكريم الإلهي للإنسان، بغض النظر عن اللون، أو المعتنق الديني والفكري.

ب-التوصيات:

١-ضرورة استغلال وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة في التعريف بأخلاق الإسلام والنبي (ﷺ) في التعامل مع غير المسلمين ؛ لتصحيح المفاهيم المغلوطة والخاطئة التي رسمها الإعلام الغربي عن الإسلام والنبي(ﷺ).

٢-قيام الأزهر بدوره الدعوى والتوعوي والتنويري المنوط به، بإعداد كوادر قادرة على توصيل الرؤية الإسلامية والنبوية الصحيحة إلى غير المسلمين، وهو ما يقتضى ضرورة الإلمام بعدد من اللغات العالمية؛ ليسهل مخاطبة غير المسلمين بلغتهم.

٣-ضرورة أن تتضمن المقررات الدراسية، في مستويات التعليم المختلفة، موضوعات تؤسس للرؤية الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين.

قائمة المحتويات

م	الموضوع
١	**مقدمة.**
٢	**التمهيد:** وتضمن تحديد أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم وأساسها.
٣	**المبحث الأول:** معاملة النبي (ﷺ) لغير المسلمين في وقت الّسلم.
٤	**المحور الأول:** سماحة النبي (ﷺ) .
٥	**المحور الثاني:** الصلات الاجتماعية.
٦	**المحور الثالث:** التعامل المالي.
٧	**المحور الرابع:** حرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم.
٨	**المحور الخامس:** إقرار الحرية الدينية.
٩	**المبحث الثاني:** معاملة النبي (ﷺ) لغير المسلمين في وقت الحرب.
١٠	**المحور الأول:** بواعث حروب النبي(ﷺ) وأسبابها.
١١	**المحور الثاني:** أخلاق النبي (ﷺ) مع غير المسلمين قبل بداية الحرب.
١٢	**المحور الثالث:** أخلاق النبي (ﷺ) مع غير المسلمين في أثناء الحرب والقتال.
١٣	**المحور الرابع:** أخلاق النبي (ﷺ) مع غير المسلمين بعد انتهاء الحرب.
١٤	**الخاتمة:** وتتضمن أهم النتائج التي أمكن التوصل إليها، والتوصيات المقترحة.
١٥	**قائمة المحتويات**